

ملتقى الادبيين

المحاضرة التي القاها المستشرق الافرنسي (لوي ماسينيون) في بهو المحاضرات بمدرسة الحقوق العربية يوم ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سادتي :

ان مدحي الذي نتمتع به من دولة الوزير هو من حسن ظنه بي وليتني اقدر ان اتكلم في محاضرتي هذه بما يحقق ظن دولته . جئت دمشق لامتثال ما فليمة وما كان قصدي ان ارجع من البلاد الشرقية بعد ان درست خمس عشرة سنة علوم التمدن الاسلامي فيها موضوعي الملتقى الادبي بين الشرقي والغربي وخاصة بين الاسلام والنصرانية وبالاخص بين سورية وفرنسا ولذا يجب ان ندقق هذا الملتقى وغاية قصدي ان نزرع روح هذا الالتقاء في مدينة دمشق

اولا : لندقق في اسباب الهجرة ، هاجرتم الى بلادنا ومهاجرتنا الى بلادكم . لا اذكر الاسباب الاقتصادية لانها اسباب مؤقتة . نعم اننا لانعيش بلا خبز ولكن المألة اعلى وادوم اعني انها مسألة فكرية انتم محتاجون اليها ونحن محتاجون اليكم . قال التشري في موشحاته :

« ايش علي من الناس وايش علي الناس مني »

ولكن بالنسبة لنا ولكم فانه يجب ان يتبادل الشرقي مع الغربي وبصورة اوضح الافرنسي مع العربي السوري المنافع الحقيقية والفوائد الماهمة

ادخل في البحث عن اسباب مفر المهاجرين من الشرق للغرب : قيل ان سبب هذا هو انحطاط رتبة العلوم في الشرق ولذا يهاجر طلاب العلم منه الى الغرب . ان كثيرا من السامعين سافروا الى الغرب لتحصيل فن الطب الذي هو لنداوي الاجسام وقسمه . افر لتحصيل العلوم الاجتماعية لاصلاح الامة ومدائها الاجتماعية . نعم ان اولئك كانوا افراداً ذهبوا ورجعوا بالاختصاص باجتماعياتنا الداخلية ولذا ارى من الواجب ان يكون بين

طالب العلم الشرقي وطالب العلم الغربي مبادلة اجتماعية فكرية وها انكم جئتمونا فرادى
فجئناكم افواجا

ابداً في البحث عن مجمل تاريخ حركة المستشرقين في فرنسا

ان اصل الاجتماعيات اللغة، ولولا النطق ما تكونت الامم وان اول شعور المستشرقين
الافرنسيين في اللغة العربية في النجوم . وقد وجدنا خصائص في اللغات السامية لاسيما اللغة
العربية فان فيها فضائل خاصة بها دون سواها . منها : الاصول الثلاثة في الكلمات
اي ارجاع اي كلمة كانت الى ثلاثة احرف للاطلاع على معناها في المعجم . لكن هذه الخاصة
لا توجد في اللغات الآرية فلا ترتب المعاجم فيها بمقتضى اصول الكلمات بل ترتب كل
كلمة كما تلفظ

ثانياً امكان التعبير في اللغة العربية عن تنوع الفكر الداخلي بتغيير جوهري باصول
الافعال من غير لزوم لزيادة خارجية على ذلك الفعل . وليس الحال كذلك في اللغات
الآرية اذ لا بد فيها من زيادة خارجية للتعبير عن تنوع الفكر واشكاله

اسمحوا لي ان ابين الفرق بين اللغات السامية والآرية من حيث الروحانية والجسمانية
فاقول : ان اللغات السامية روحانية . واللغات الآرية جسمانية . وقد اخضعت اللغات
السامية بالوحي . ربما سمعتم قول الفيلسوف (رنو) الافرنسي فهو متعصب للآرية ويقول
هي افضل من اللغات السامية لان السامية محرومة من الفنون الجميلة الواسعة

لا انكر قوله تماماً ولكن اقول : ان اللغات السامية ذات المنزلة الروحية (ولم نلاحظ
بمناجاة العبد لربه الواحد الا بعد دخول النصرانية في الآرية) وعلى كل فان مسألة
اللغة ترجع الى الروح وقد قيل في القرآن الكريم (قل الروح من امر ربي)

اذا دخلنا في المقابلة الاجتماعية بين الشرق والغرب نرى ان الفكر الشرقي متقدم على
الفكر الغربي في تحليل مسألة توافق العلم مع الدين . وليس من الضروري ان اذكركم
امثال ابي حيان التوحيدي وابن سينا والغزالي وابن رشد والفخر الرازي الذين نفتخر
بآثارهم فهم ارباب هذا التوافق . نعم انكم تركتم هؤلاء ونحن آخذون في البحث عنهم
والتدقيق في آثارهم . تركتم واخذنا فأضعتم واستغلنا لاننا نبحت عنهم كيف كانوا
يدققون في المسائل

اذكر لكم مسألة (الترجيح) وهي برهان من براهين وجود الله ذكرها السهروردي الحلي واعترض عليه قوم بذلك وجل قصدي ان ابين لكم تأثيرها على مفكري الغرب وخاصة على فكرة (باسكال) الفرنسي في بحثه المشهور (بالمقامرة) ومعناه انه يرجح الوجود في الحشر على النلاشي كما قيل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا بعث في الاخرى فقلت اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالتخسر عليكما

ايها السادة : هذه فكرة مكتسبة من متكلمين وكثير من مستشرق في الامم الغربية يدققون في المناهج الشريفة الصحيحة لمعرفة انتساب هذه الفكرة واخيراً كانت لي مراسلة مع صديقي الاستاذ (سنوك) في كلية ليدن وكان بحثنا في رأي الغزالي في مسألة السريحية لان الغزالي رجل عظيم المهمة فاستفيد من التدقيق في سلسلة افكاره . وهذا الاقتران بين المبادئ المنطقية والاحكام الفقهية الذي يشير اليه الغزالي دليل على انه لا فائدة من البحث في العلوم الا برؤية نتائجها العملية فالعالم يبدأ اولاً بمدواة نفسه بالترياق ثم يداوي الامة . والاصلاحات الحقوقية لا بد لها من احترام في نفوس اولي الامر ومراقبة نتائجها العملية والا فلا ترجى فائدة منها للامة هذا نقطة الملئقي بين الادبين الغربي والشرقي .

لا يستفيد البمض من الآخر الا بعد النفاغ وهناك درجات للتفاهم . ندقق اولاً في الكلمات ثم نرجع الى المعاني . ثانياً يجب ان نفقه المعاني بمقاصدها، مثلاً في الآية (عينا يشرب بها عباد الله) فتجري نية الاخلاص في قلوبنا واعضاءنا لتمر الاعمال من التذكر الى الفهم ومنه الى التخلي باخلاص المخلصين من الاسانذة لتكون التربية واحدة . وهذا هدف التربية والعلوم . وهو اصل النضام الاجتماعي كما جاء في الآية (لمن كان له قاب او اتقي السمع وهو شهيد)

اسمحوا لي ان اذكر لكم بعض تجاربي الخاصة . اما من اسفاري في البلاد الاسلامية واما من تدريسي التاريخ واما من تجاربي في زمان الحرب . اذكر اولاً بيتاً من ديوان الحماسة وهو :

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة بوايك او يسليك او يتوجع

هنا يتأسس الملتقى بين انسانين واناس مختلفين ولا تمكن معرفة الرجل الا باستصحابه ولا يفهم جوهره الا عند نزول الشدائد .

واذا رجعت الى مفكرتي اثار يمنية فاني ادقق الفكر في تكوين هذه الامة العظيمة الاسلامية ، انظر للاسلاف من امتمكم وافول : كيف تأسست الامة الاسلامية ! ان بعض المفكرين الذين ينظرون الى هذه المسألة سطحياً اي من الخارج يقولون ان العرب قد تغلبوا على هذه الاقطار الواسعة بقوتهم وبآلاتهم الحربية فخفضت لهم الافواص . ولكن يجب ان نمن النظر في منبع الحياة الاجتماعية في زمان تلك الفتوح فاقول انه اذا لم يكن هناك بينهم اشتراك في مبدأ صحيح فلا يمكن ان يتكون تلك الامة على هذا المقدار لا انسى تراجم مشاهير الاسلام وخاصة الحسن البصري الذي يعد من مشاهير رجال الامة الاسلامية واذكر انه ثارت ثورة في ايام الحجاج الثقفي في البصرة الخارج على ذلك الوالي الظالم . فقال الحسن رافضاً الاشتراك بالثمة (ان النصيحة واجبة والخروج بالسلاح حرام) وضرب الناس المثل بالحسن انه رجل يتفرس بحصول السيل ويبقى مع بني قومه في الوادي بعد ذلك كما هو شأن رئيس السفينة عند الفرق وهـذا دليل على سعة نطاق الفكر عندكم . معشر العرب وقد كان السلف من اهل السنة متمسكين بهذه الصحبة التي تشبه صحبة الصحابي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بمعنى انهم مرتبطون معه ارتباطاً اجتماعياً بوجه خاص . ولما كانت الضيافة اصلاً في تلك الصحبة بين الرب العاربة وجب علي ان اذكر لكم هذه الفضيلة مبرهنياً عليها — بما شاهدته من نتائجها بنفسي .

لا ادخل في مشكلات الاحياء ويكفي ان ارجع بكم الى ذلك الفكر الاخلاقي المفرط في نهج السانكين لابن قيم الجوزية ومن الواجب ان اذكر كتاب الرعاية لحقوق الله وهو للحارث بن اسد المحاسبي ومن الغريب ان هذا الكتاب لم يطبع وهو موجود في دار الكتب في او كسفورد بانكلترا .

ان لكم فضائل اجتماعية لا تنكر عليكم وهي الرضى بقضاء الله والصبر على حكم الله والتسليم لامر الله وربما ادى عدم فهم معنى هذه الحقيقة او الفضيلة الاجتماعية الى قبول اي استبداد كان بكم وعلماءكم ساكتون فقد فسر الحلاج التوكل بالتمرد تحت موارد القضاء

ملتقى الادبين

اما تجاربي الاجتماعية في الحرب فارجع بكم لتذكاري الماحي التي بذلت في الحرب .
كلنا ينبغي ان نرجع للازمنة الماضية ولكن هذا غير مأمون لان من الواجب على المؤرخ
ان يفهم بنفسه ويفهم السامعين ان هناك ثمرات اجتماعية باقية من كل واقعة تقع ولكل
مصيبة فائدة وقد استفدت من المصائب اكثر مما استفدت من المرات . جرحنا فتوجعنا
ثم ميزنا الايف من غيره واعدنا معدات نوها لنا للحياة الجديدة السعيدة .

كانت في زمان الحرب العامة طلاب المدارس في فرنسا نتوافد زرافات الى الخنادق
ووقف العلماء والشيوخ امام العدو وصرنا متحدين مع طبقة العامة بتأثير المصيبة المشتركة
فهم من الاجتماعات انه لا منفعة صحيحة الا من الالفه ولا الالفه الا من طريق الحن والمصائب
اتذكر الآن من ساعدني من اخوانكم المسلمين ولن أنسى ابداً الشيخ محمود الالوسي
وابن عمه الحاج علي فهما ساعداني مساعدات اخلاقية مهمة وافهاني اهمية ملتقى الادبين
الشرقي والغربي .

وقد اجتمعت بالشيخ طاهر الجزائري والشيخ جمال الدين النفاسي الدمشقيين
واكتسبت منها فوائد مهمة وكنت اريد ان اشكرهما لديكم لولا انها توفيا وخلفا
امثالكم في الامة السوربة فاقدتم ذلك الشكر لكم واني اسعي لمعرفة السبل لتأليف اجزاء
هذه الامة الصحيحة المعتمدة وفي الختام اقول ان تأليف القلوب لا يكون بطريق
سياسي كما يزعم وانما يكون بطريق الصديقية بين الاصدقاء وهذا هو ملتقى الادبين
وهل جزاء الاحسان الا الاحسان .